القدس مرآة العرب

شـــفـــيـــق الـــغـــبرا

أســتــاذ الـعـلـوم الـسـيـاسـيـة في جـامـعـة الـكـويـت

الملخص

تعيش القدس منذ عام 1967م صراعاً كبيراً، وغربة شاملة حول بقائها ورمزيتها وذلك في ظل الاستفراد الإسرائيلي بالمدينة وسكانها. إن السعي الإسرائيلي لإخراج القدس من التسوية وتهويدها هو جزء من الصراع الأكبر على مستقبل العالم العربي. فوجود القدس تحت الاحتلال يرمز إلى طبيعة السعي الإسرائيلي لتغيير معالمها وتهويدها على حساب سكان البلاد الأصليين، ولكنه في نفس الوقت يعكس تآكل وضعف العالم العربي؛ ولهذا لن يكون هناك سلام في منطقتنا ما دامت القدس تحت الاحتلال، بينما الشعور بالغبن ينتشر وسط العرب والمسلمين في الداخل والخارج. ستبقى القدس مكاناً يثير خيال المقاتلين والمقاومين العرب، ويثير خيال الساعين لتحريرها على اختلاف ميولهم. إنها قصة دائمة لحالة متجددة، لن يكون القفز عنها ممكنا. فما يقع في القدس يحرك الذاكرة الخصبة حول الماضي، ويحفز الأمل بما قد يكون في المستقبل.

لكن القدس بحاجة للكثير لتكون تلك المنطقة والواحة التي تعبر عن العرب والفلسطينيين وطموحاتهم لأنفسهم وثقافتهم ومستقبلهم، فهذه المرحلة تتطلب إعادة الاعتبار للشخصية المقدسية ولموقع القدس، وذلك بصفتها مدينة لكل الأديان في ظل حقوق سكانها وسيادتهم عليها، وبصفتها عاصمة للدولة الفلسطينية العربية الممكنة. إن إعلان القدس عاصمة الثقافة العربية هذا العام خطوة تهدف للدفاع عن القدس وتحصينها، وزيادة الوعي بأهمية التضامن مع أهلها في نضالهم. لكن ماذا بعد هذا العام؟ ماذا عن العام الذي يليه ويليه؟ وماذا عن الاستيطان واختفاء معالم المدينة؟ إننا في صراع مع الوقت والزمن هو امتداد لما بدأ مع وعد بلفور في نوفمبر 1917م.

أعي جيداً كيف وقعت القدس الشرقية و المسجد الأقصى تحت الاحتلال عام 1967 في ظل الحرب المجحفة التي شنتها إسرائيل، وأدت إلى احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء والجولان. لكن بقاء الأمر معلقاً لأكثر من أربعين عاماً – بما يمثل ذلك من إضافة على نكبة فلسطين التي وقعت عام 1948 – يجعل كل محب للقدس وساعٍ لتحقيق حلم بعثها في الفضاء العربي يتساءل عن المستقبل واحتمال ان تثير قضية القدس من جديد انتفاضات كبرى وسعياً متجدداً لتحريرها. و أعي أنه لن يكون هناك سلام في منطقتنا مادامت القدس محتلة وسكانها والشعوب العربية المحيطة بها يعيشون مذلة وطنية وإنسانية تخترق أعماق قيمهم الدينية والمعنوية والوجودية. القدس مكان ساحر يثير خيال العرب والمسلمين والمسيحيين، ويثير خيال الساعين نحوها حرباً أو سلماً على اختلاف ميولهم. فالقدس تحوي في ثناياها دائماً قصة متجددة نابضة بالحركة، فكل ما يقع في القدس وحولها يساعد العرب والفلسطينيين على إبقاء ذاكرة الماضي الخصبة.

ومنذ حرب 1967 وإسرائيل تسعى لإخراج القدس من التسوية، وذلك بتهويدها واقتطاع أراضيها، كما أنها تسعى – من خلال سياساتها – لاستيطان مناطق الضفة الغربية المحيطة بالقدس وضمها إلى بلدية القدس الإسرائيلية الكبرى. فهذه المناطق التي ضمتها إسرائيل واستوطنتها تمثل المكان الطبيعي لنشوء دولة فلسطينية مستقلة قابلة للحياة عاصمتها القدس الشرقية. إن هذا الوضع، في ظل تقسيم أواصر الضفة الغربية المحتلة ومصادرة الكثير من أراضيها وتهويد القدس، يهدد بتعميق الصراع حاضراً ومستقبلاً. إننا في صراع طويل وسباق مع الزمن منذ وعد بلفور الظالم في نوفمبر 1917 إلى يومنا هذا.

إن ضعف العرب وانقسامهم وقلة حيلتهم يرمز هو الآخر إلى ما أصابهم من ترد سياسي وفكري وثقافي وحتى حضاري، وهذا مهد في السابق إلى أن يدفع كل جيل فلسطيني وعربي ثمناً لا يقل ألماً عن ذلك الذي دفعه الجيل الذي سبقه. هذه واحدة من أشد المراحل وطأة على القدس وسكانها وعلى فلسطين وحملة لوائها، وفي هذا تتحول القدس لمرآة للعرب أكان الوضع مداً أم جزراً.

السياسة الإسرائيلية

منذ احتلال القدس الشرقية عام 1967 صادرت إسرائيل نحو 35٪ من مساحة القدس من أصحابها الفلسطينيين؛ وذلك بحجة بناء وحدات سكنية لليهود، فقد بنت أحياء جديدة مثل: «نفيه يعكوف» و«غيلو» وفي جبل أبو غنيم. وتؤكد الإحصاءات التي قامت بها إسرائيل عام 67 وجود 66 ألف فلسطيني في المدينة ومحيطها المباشر في ذلك التاريخ. مع عام 1993، وبفضل الاستيطان المكثف أصبح هناك أغلبية يهودية في القدس الشرقية؛ إذ وصل عددهم إلى 155 ألف يهودي يسكنون في 17 مستعمرة حول القدس. أما العرب فأصبحوا 150 ألفاً في ذلك العام. أما مع عام 2006 فأصبح سكان القدس الشرقية (والتي تم اقتطاع أراض من الضفة الغربية إليها بهدف ضمها إلى إسرائيل) فأصبحت 428 ألفاً، منهم 181 ألف يهودي، 229 ألف فلسطيني مسلم، وهناك أيضاً 13 ألف فلسطيني مسيحي. أما في القدس القديمة حيث مركز المدينة القديمة فهناك 32 ألف عربي، ونحو 3900 يهودي.

علينا أن نعي جيداً أن الاتجاه التاريخي في ظل المعادلة الراهنة القائمة على الاحتلال هو لصالح الاستيطان ومزيد من التغير الديموغرافي والسكاني في ظل تهويد المدينة. وهناك أيضاً خلاف دائم حول الإحصاءات المتداولة، لكن الواضح والأكيد أن إسرائيل تحاول جاهدة زيادة عدد اليهود على حساب العرب، وتسعى لأخذ ما تستطيع من الأرض في الوقت ذاته.

تساؤل: ماذا بعد تسمية القدس عاصمة الثقافة؟

إن تسمية القدس منذ عامين عاصمة للثقافة العربية مثّل خطوة تسلط الضوء على المدينة المحاصرة وتنشط حراكاً محموداً يتصدى للتهويد ومحاولات طمس الهوية الفلسطينية. لكنني أتساءل ماذا بعد هذا العام؟ ماذا عن العام الذي يليه ويليه؟ فهل نهب لنجدة ما نحب، ثم نستكين قبل أن تصلنا الهبة التي تليها؟

هذا يقود لمسألة أساسية تتعلق بالخطاب والسياسة العربية تجاه القدس. يجب أن يخرج الخطاب العربي والفلسطيني أيضاً من الإنشائية والتوظيف في الصراعات الجانبية إلى العملية و ما ينفع وينجح ويحقق النتائج المستدامة. علينا أن نتساءل باستمرار: كيف يمكن عمل ما هو متاح لأجل المدينة التي شكلت أولى القبلتين ويقع فيها ثالث الحرمين، وشكلت بالنسبة للمسلمين معنى كبيراً من خلال الإسراء والمعراج، ووجدت فيها الحضارة السامية للكنعانيين منذ فجر التاريخ، والحضارة المسيحية الشرقية منذ ولادة سيدنا المسيح، ثم الحضارة العربية الإسلامية بكل تنوعاتها منذ القرن السابع الميلادي؟

ألا يعكس وضعنا السلبي ميزان القوى بين الحركة الصهيونية والعالم العربي الموزع في ولاءاته والمتوتر في خلافاته والضعيف في المجال العملي والتنفيذي والعلمي والسياسي؟ إن الحالة العربية المكونة من أنظمة إدارية ضعيفة، قدرات فكرية مهمشة، دول عربية وغير عربية متخاصمة، انحسار العلم والتعليم جعل من القدس موقعاً مهدداً. فالمسألة ليست – في جلها – بيد الحركة الصهيونية أو السياسة الخارجية الأمريكية لأن جانباً كبيراً منها بيدنا.

وبينما أراجع هذه المحاضرة في نسختها الأخيرة للنشر اندلعت الثورات العربية في كل من تونس ومصر وليبيا، وبدأت حركات الاحتجاج في سلسلة من الدول العربية؛ مما يساهم في بناء حالة جديدة على الصعيد العربي على يد جيل جديد اختبر العالم بطريقة مغايرة نسبة للأجيال التي سبقته. في الفضاء العربي صحوة جديدة للشعوب العربية، وهذا بطبيعة الحال سينعكس على الشعب الفلسطيني وحركة المقاومة في صفوفه.

خطورة اختلاف مشاريع المقاومة

لقد أصبحت القدس في السنوات القليلة الماضية مكاناً للاختلاف بين مقاومين من أرضيات مختلفة كما هو حاصل بين فتح وحماس، وبين غزة والضفة الغربية، وربما بين فلسطينيي الشتات وفلسطينيي القدس. لكن

ما فائدة الاختلاف إن اختفت القدس عن خريطة المقاومة وخريطة الأرض والتسوية في الوقت ذاته؟ وما فائدة الاختلاف إن تحولت القدس إلى مكان مهجور وأرض للمستوطنين الذين وصلوا إلى مائتي ألف في القدس وحدها، يضاف إليهم عدد مماثل في الضفة الغربية المحتلة؟ إسرائيل تخلق وقائع وتتوسع كل يوم عبر الاستيطان والجدار وعبر اقتطاع الأرض و الحفريات أسفل المسجد الأقصى. ماذا يترك كل هذا لنا؟ كيف نقاوم المشروع الصهيوني لتهويد القدس ونحن منقسمون ونتصارع على غنائم معركة لم تحسم بعد؟

إن التغير لن يكون ممكناً بلا استراتيجية، جوهرها أولاً سكان القدس والسكان المحيطون بها في الضفة الغربية وكل ما له علاقة بالقضية الفلسطينية الحاضنة الأوسع لمسألة القدس. القدس بحاجة للكثير من الدعم المدروس والمستدام لتكون تلك الواحة التي تعبر عن العرب والفلسطينيين وطموحاتهم لأنفسهم وثقافتهم ودينهم ومستقبلهم واستعادة حقوقهم.

ان خروج القدس من دائرة التسييس والمصالح الضيقة سوف يعني أنها تمثل صراعاً إنسانياً أولاً من أجل حقوق أهلها، وإنسانياً من أجل أن تكون مكاناً حراً لكل الأفكار والثقافات والديانات كما كانت عبر التاريخ، مدينة السلام والتعايش ، ولكن هذا غير ممكن مادامت هدفاً للتهويد والاستيطان وطرد أهلها، هذا ممكن من خلال إعادتها لأصحابها الشرعيين من الفلسطينيين العرب وتحويلها لمكان يحترم كل الثقافات والديانات.

إن تحويل السعي نحو القدس إلى صراع ديني هو الآخر أفادها وأضر بها في الوقت ذاته؛ فالصراع في القدس ليس بين اليهودية والمسيحية والإسلام، بل إنه أساساً حول حق أهلها الفلسطينيين في بقائها تحت سيادتهم وسياستهم، إنه صراع بين العروبة والإسرائيلية، وبين محاولة إسرائيل الاستئثار بالقدس وطرد العرب وبين محاولة العرب حماية القدس بصورتها العربية التاريخية والحقوقية. القدس عاصمة الدولة الفلسطينية وهي أرض عربية فلسطينية.

استراتيجية المرحلة

هذه المرحلة تتطلب إعادة الاعتبار للشخصية المقدسية وإعادة الاعتبار لموقع القدس في العالم العربي بكل ما يمثل ذلك من تاريخ وثقافة وحضارة. يجب أن يكون ذلك حاضراً عبر المسرح والأغنية وعبر الإبداع والنشر والكتابة. القدس مدينة المدن و مدينة الأديان السماوية، كما يجب أن يكون حاضراً عبر المقاومة المدنية والسلمية التي يمكن للجيل الشاب أن يتصدر لها.

ولكن أكنا مع فلسطين التاريخية أم مع مشروع إقامة دولة فلسطينية على أراضي الـ 67، أكنا مع إنقاذ ما يمكن إنقاذه أم مع السعي لإنقاذ كل الأرض، على المؤمنين بالقدس العمل على وضعها فوق الخلاف السياسي الفلسطيني وفوق الخلاف السياسي العربي العربي أو العربي الإسلامي الإيراني. ولتحقيق هذا تحتاج القدس لقيادة شبيهة بالقيادة الموحدة للانتفاضة الأولى التي قادت انتفاضة عام 1987، وضمت رموزاً أساسية قادرة على المواجهة بدرجة عالية من الإدارة والتنظيم والإبداع. لقد قدمت تلك الانتفاضة نموذجاً متميزاً للمقاومة المدنية المجتمعية لا تقل أهمية عن نماذج غاندي أو جنوب إفريقيا أو حركة الحقوق المدنية للأمريكيين من أصول إفريقية.

إن القدس في ظل انحسار الثقافة العربية وفي ظل معارض للكتاب مشوهة، وكتب ممنوعة، وحريات ملاحقة، ومفكرين محجوز عليهم لا يمكن أن تنتصر. لكن القدس في ظل الحراك العربي والثورات العربية والمد العربي الواسع ستشعر حتماً بالاحتضان التاريخي لها من قبل العالم العربي الذي يؤكد وجوده.

إن إدراكنا لهذه الجدلية يتطلب منا تحويل القدس إلى موقع ثقافي متقدم ولنموذج في التجربة العربية، هذا يتطلب أن تكون القدس واحة حرية ثقافية تحمل ثقافة مقاومة للاحتلال وفي الوقت ذاته ثقافة حرية وحياة وتنمية للإنسان والتعايش. لعل أفضل طريقة لمقاومة ما تمثله السياسة الإسرائيلية من ثقافة الموت والإقصاء ومصادرة الحريات هو بتكريس ثقافة الحياة والبناء والحرية

والاستثمار بالناس والأجيال الصاعدة. في ذلك مراهنة أكيدة على المستقبل وليس على الماضي.

ويجب إعطاء سكان القدس كل الأدوات الممكنة للمقاومة. لكنني أرى المقاومة في القدس سلمية ومدنية قبل أن تكون عسكرية. إن المقاومة بحاجة لتمكين الشبان ورفد مقاومتهم بوسائل عديدة تتحدى المنع والحواجز وترفض الاستيطان والتوسع، ولكنها في الوقت نفسه تسعى لرفع مستوى التعليم والجامعات وبناء مؤسسات نامية. يجب على المقاومة أن تسعى لبناء الحياة إلى جانب المواجهة، وألا تسمح لإسرائيل بعزل القدس عن العالم. يجب فتح قنوات جديدة للقدس مع العالم العربي و العالم. القدس مدينة مؤهلة كي تذهب إلى العالم وكي يأتي العالم إليها، هي مدينة لا يجوز عزلها، فهي الشاهد على الظلم وهي مفتاح السلام بين الديانات والثقافات المختلفة المتصارعة في عصرنا هذا.

من الضروري أن يستخدم أهالي القدس كل ما هو متاح لإيقاف الاعتداء الإسرائيلي حتى لو لجؤوا إلى المحاكم الإسرائيلية، و حتى لو تحالفوا مع القوى الرافضة للاحتلال في المجتمع الإسرائيلي. فالصراع الآن لم يعد بين كل إسرائيلي وكل فلسطيني، بل بين كل عربي وفلسطيني من جهة وبين الحركة الصهيونية ومؤيديها من جهة أخرى. هناك في إسرائيل ناقدون للصهيونية خاصة بصورتها التوسعية والعنصرية، وهذه فئات يجب أن نناضل معها لكبح جماح الصهيونية الساعية لطرد السكان وأخذ الأرض انطلاقاً من تصورات عنصرية وعرقية انتهى زمنها وسقطت في كل بقاع الأرض.

ويجب في هذا المجال تعزيز التحالف مع عرب وفلسطينيي عام 1948 ممن يستطيعون الوصول للقدس بحكم حملهم للهوية أو الجنسية الإسرائيلية ولأنهم سكان البلاد الأصليون ممن بقوا على الأرض بعد احتلالها عام 1948 وطرد السكان. هذه الفئة بإمكانها أن تلعب دوراً مفصلياً في الحفاظ على القدس وهويتها ومستقبلها ومقدساتها، ولكنها هي أيضاً يجب أن تترفع عن تسييس ملف القدس وتوظيفه لمصالح ضيقة، فالرسالة السياسية الواضحة هي مفتاح نضال مجد ومستمر.

إن المواجهة لأجل القدس يجب أن تكون بعناوين عربية وإنسانية وإسلامية ومسيحية تقول بالعدالة والإنسانية. إن المدخل هو العدالة والتعايش، وهو في نهاية الطريق حماية لكل الديانات ولليهودية أيضاً بصفتها ديناً يمتلك حقوقاً روحية وليست قومية أو وطنية في القدس العربية.

إن العامل الاقتصادي على قدر كبير من الأهمية. فهل يمكن للاستثمارات العربية أن تتقدم الطريق إلى القدس بهدف تنموي؟ وكيف يمكن لها أن تعتبر الاستثمار في القدس طريقة لحماية الوجود العربي وتنمية القدرات الإنسانية؟ وهل يمكن حصر المخاطر عبر هذا الاستثمار بما يسمح بخلق الفرص للعمل وخلق الفرص للمؤسسات وبناء الجديد كل يوم؟ إن السعي لبناء بنية تحتية اقتصادية يجب أن يكون هدفاً مشروعاً لجميع القوى الساعية لتقوية القدس وبقائها.

القدس مرآة للعرب، ففي سنوات التراجع والضعف العربي تكون القدس مهددة، وفي سنوات النهضة والتقدم، كما هو حاصل مع الثورات العربية التي بدأت في نهاية عام 2010، تعود القدس إلى عافيتها ويشعر شبانها ومناصروها بفرص جديدة للتغير والثورة والانتفاض. قدسية القدس جعلت منها موقعاً أساسياً ومنارة للوجود العربي. يجب المحافظة على هذه المنارة وتدعيمها، فالقدس تقترب من صنع مستقبلها بيدها كما يقترب الشعب الفلسطيني من بناء ثورة جديدة تكون مقدمة لنيل حقوقه الوطنية والتاريخية وتحقيق نصر استراتيجي على الاحتلال والحصار والمصادرة والاستيطان.

* * *